عظة في أحد القدّيس يوحنّا السلّمي

أنتوني (بلوم) متروبوليت سوروج

29 آذار 1987

باسم الآب والابن والروح القدس.

في إحدى كتاباته، يقول القدّيس يوحنّا السلّميّ الذي نقيم تذكاره اليوم: "أيّها الإخوة، لن نُحاكَم ولن نُدانَ لأنّنا لم نعمل المعجزات أو لم نتنبّأ؛ لكنّنا سنُدان لأنّنا لم ننُحْ على خطايانا خلال حياتنا."

ماذا يوجد في الخطيئة حتّى تسبّب لنا هذا الانكسار في القلب الذي لا يجعل حياتنا كلّها مظلمةً فحسب، بل متأثّرةً أيضًا بهذا الألم الذي في قلوبنا؟ نميل إلى تعريف الخطيئة بأنّها انتهاك القانون الأخلاقيّ، أو التصرّف بطريقة تخالف واجبنا أو ما هو صواب؛ ولكن ثمّة أمرٌ أكثر جوهريّة في الخطيئة، وهو الذي يجب أن يُسبّب لنا الحزن وأكثر من الحزن: أن يسبّب لنا الألم العميق.

الخطيئة هي خيانة، وهي عدم إخلاص؛ إنّها خيانةٌ وعدم إخلاص تجاه الله لأنّها تعني أنّ كلّ ما يقوله لا يهمّنا كثيرًا، مع أنّه عندما تحدّث إلينا، تحدّث بكلّ محبّته البشريّة ومحبّته الإلهيّة؛ ولكي يُظهر لنا بالفعل مدى أهمّيّتنا لديه، ومدى عمق تقديره لنا، بذلَ حياته كلّها وموته لكي يخلّصنا، ولكي نؤمن بالمحبّة الإلهيّة!

أن نخطأ يعني أن نبتعد عمّن يحبّنا حتّى الحياة وحتّى الموت؛ وهذا يعني ضمنًا أنّ حياته وموته قليلان جدًّا بالنسبة لنا، قليلان جدًّا لكي نستجيب له بالمحبّة، أو بالوفاء والإخلاص. إنّ هذا الموقف يجعلنا حقًّا نخالف، بطرائق عديدة، قوانين الحياة [الوصايا] التي تؤدّي إلى الحياة الأبديّة؛ تلك القوانين التي تجعلنا بشرًا حقيقيّين، بشرًا كاملين كما كان المسيح إنسانًا كاملًا، وفي انسجامٍ تامٍّ مع الله.

غير أنّ هذه الخطايا الملموسة التي نرتكبها طول الوقت، وهذه البرودة التي نبادر بها بعضنا بعضًا، وهذه اللامبالاة، والسهولة التي نحكم بها وندين، والطريقة التي نُعرِض بها عن احتياجات الآخرين، والطريقة التي لا نهتمّ بها بالمحبّة المقدَّمة لنا، ذلك كلّه ينتج من برودة قلوبنا.

لا يقول المسيح عبثًا في إنجيل اليوم: "هذا الشيطان، هذه الروح، لا يُطرد إلّا بالصلاة والصوم": الصوم، بمعنى الابتعاد عن كلّ تلك الأشياء المضلّلة التي تُبعِدنا عن المحبّة والوفاء والإخلاص والأمانة، والتي تدمّرنا بالكلّيّة؛ والصلاة، باعتبارها شركة مع الله الحيّ الذي هو محبّة، والذي فيه وحده يمكننا أن نجد القوّة والقدرة على المحبّة.

لذلك، ليس من المستغرب أنّه بعدما أحضر الرجل ابنه المريض بالصرَع إلى التلاميذ، التفت إلى المسيح قائلًا: "لم يتمكّنوا من شفائه"؛ فقال المسيح: "أحضروه لي!". ما لم نُحضَر إليه، فإنّ كلّ شيءٍ آخر يكون بلا جدوى.

قد نسأل أنفسنا قائلين: "هل نحن منفصلون عن الله إلى الحدّ الذي يجعلنا نبكي على هذا الانفصال طول حياتنا؟". في الواقع، مَن منّا يجرؤ على القول إنّ قلبه دافئٌ في كلّ لحظةٍ لأنّه يشعر بأنّه مع الله، وبأنّ الله قريبٌ منه وهو في شركةٍ معه؟

يجب أن تكون علاقتنا مع الله مثل الواقع في حالة حبّ. سنرى في كلّ لحظة، ليلاً ونهارًا، أكنّا مستيقظين أم نائمين، أنّ قلبنا ينبض ويرتجف بمحبّةٍ تغمرنا حتّى الملء، أي بالفرح والبهجة، والسلام والسكينة، والقوّة والشجاعة؛ وبمحبّةٍ تجعلنا ننظر حولنا فنرى الجميع بمنظورٍ مختلف، ونرى صورة الله تُشرق في كلّ شخصٍ نلتقي به، ونفرح بها.

إذا سألنا أنفسنا كم نحن بعيدون عن الله، ولم نستطِع قياس المسافة بيننا لأنّ خبرتنا في القرب منه ضئيلةٌ للغاية، فلنسأل أنفسنا: "كم أنا بعيدٌ عن الناس المحيطين بي؟ كم هي قليلةٌ المحبّة في داخلي، وكم قليلٌ الإخلاص، وكم قليلٌ بذل الذات، وكم قليلٌ فرحي بقريبي؟ وكم كثيرةٌ الإدانة، واللامبالاة، والبرودة، والنسيان". وعندها سنقول: "إذا كنتُ هكذا فهذا يعني أنّني لم أجعل الله مركز حياتي، وأنّه ليس المَلك الذي يملك في قلبي وعقلي وكياني كلّه وحياتي. وعندما نفكّر ونرى أنفسنا تتأرجح بين تلبية دعوة الله وتلبية رغبات بشريّتنا الساقطة وخداع الشرّ، عندها سنقول مرّةً أخرى: "كم أنا بعيد". إلى أن نجد الانسجام مع الله، سنبقى منقسمين ومكسورين في داخل أنفسنا؛ إلى أن نجد الانسجام مع الله، سنبقى منقسمين بعضنا عن بعض.

لهذا، يدعونا القدّيس يوحنّا السلّميّ إلى إعطاء أهمّيّة مطلقة للطريقة التي نسلك بها إزاء الله، لأنّ كلّ شيءٍ آخر سوف يعتمد على ذلك. فالله يشبه مفتاح الإيقاع الذي يسمح بقراءة اللحن وغنائه. وهو، كما يقول كاتبٌ آخر، الخيط الرفيع الذي يربط بين الزهور، والذي لولاه لكانت قد تفكّكت. حتّى الزهور، وحتّى الفضيلة، وحتّى الجمال، وحتّى الحقيقة تتفكّك كلّها إذا لم توجد تلك المحبّة البديعة والابتهاج والفرح التي لا تُعطى إلّا من خلال شركتنا مع الله، لأنّه هو المحبّة، وهو الحياة، وهو الحقيقة، وهو الفرح والنور والابتهاج.

لِنُباشرْ إذًا التوبة بالمعنى الذي يراه القدّيس يوحنّا السلّميّ: لا بمعنى الرثاء الفارغ لماضينا، أو الندم العقيم وعديم الجدوى على عدم كوننا كما نتمنّى، بل الصرخة إلى الله: "تعالَ يا ربّ، وتعالَ سريعًا!". وإذا صرخنا بكلّ قلوبنا وأذهاننا وكلّ احتياجنا، فسيأتي الله، وسنجد أنفسنا في شركةٍ مع الله الحيّ، وسيصبح كلّ شيءٍ جميلًا؛ وسنكون قد دخلنا ملكوت الله. آمين

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Anthony of Sourozh (1987). “St. John Climacus”, In *Metropolitan Anthony Library.* mitras.ru.